العدد (2146) السنة الثامنة - الثلاثاء (31) أيار 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

قضية

# لماذا نسينا بيت جبرا إبراهيم جبرا

علي حسين

ذكرت الأنباء إن أمانة بغداد قرّرت استملاك دار الجواهري إضافة إلى دار تعود لعائلة المصممة المعمارية الشهيرة زهاء حديد "لأنهما موروث حضاري ووطني يحكي قصة شخصيتين عراقيتين رفعتا اسم العراق عالياً وسط شعوب وأمم العالم وتحمّلا ألم الغربة عقوداً طويلة".

الخبر يدفعنا للتساؤل لماذا تم استثناء بيت جبرا إبراهيم جبرا الذي تعرض قبل عام الى عمل ارهابي أدى إلى ضياع موروث ثقافي وحضاري يرتبط بأذهان جيل كامل من المثقفين، بيت جبرا الذي ظل لعقود منتدى ثقافياً يلتقي فيه نخبة من المثقفين والفنانين أصبح اليوم مجرد اطلال، بل ان الأخبار تقول ان البيت سيتحول الى بناية تجارية.

يحدثنا جبرا عن علاقته بالبيت في كل لمحة من كتابه (شارع الأميرات).

((اخترت عام ١٩٥٦ ان أشتري أرضاً لكي أبني فيها بيتا على قدر حاجتي العائلية. لكني وجدت في ما بعد ان بيوتا متباعدة اخذت تنهض على جانبيه بسرعة وأشجار النخيل المتساوقة في خطين طويلين قد نمت واكتملت على حافتي الرصيف العريضتين. لقد رسم المعمار قحطان عوني أول تخطيط لداري.. ثم قدم لي الصديق رفعت الجادرجي تخطيطا آخر لكني أثرت في النهاية ان استفيد من التخطيطين ليكون منزلا لي ولزوجتي لميعة ولطفليّ الصغيرين على قدر طاقتي المادية)).

علاقة خاصة وحميمية ربطت بين جبرا وبين الشارع الذي بني به البيت:

((قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات في حي المنصور مازلت أتمتع بنبضها وإيحاءاتها.

كان من السهل ان أتعرف بهذا الشارع المتميز بين شوارع بغداد كلها، فقد كان الشارع الموازي عن قرب للشارع الذي اخترت عام ١٩٥٦ ان أشتري فيه أرضا ضمن مشروع سكني وبأقساط ما انتهيت من دفعها إلا بعد واحد وعشرين عاما لكي أبني فيها بيتا على قدر حاجتي العائلية يومئذ، وكان الاستاذ علي مال الله رئيس شركة أراضي المنصور صديقا حميما وهو الذي نصحني بابتياع تلك الأرض ولم تكن يوما إلا رسماً صغيراً على خارطة كبيرة اذ كانت في الأصل جزءاً من بستان فسيح تحول إلى منطقة سكنية عصرية محكمة التخطيط.

لأسباب مادية صرفة لم استطع اكمال بناء دارنا إلا بعد مرور ست سنوات، ورغم انني كنت اول من اشترى أرضاً في هذا الشارع ايام كان مرصوفا رصفا بدائيا وتنتشر فيه الصرائف وتسرح فيه الأبقار والأغنام، فإنني وجدت ان بيوتا متباعدة أخذت تنهض على جانبيه بسرعة، وما ان تحولنا الى دارنا أخيراً في أيلول ١٩٦٥، إلا وكان للشارع شخصيته المتميزة ولاسيما إنني يومئذ آثرت ان اجعل رصيف الدار مزروعة بالنثيل واشجار الصنوبر، وإذا بالجيران يقتلعون الاسمنت ويزرعون الأرصفة بالنثيل والاوراد، وكانت تلك بداية النهج الذي اتبعه بعد ذلك كل من بنى في حي المنصور في جعل الرصيف جزءا متصلا بالحديقة الأمامية.))

. ان ذاكرة المكان عند جبرا منذ صباه (وهو يحكي عن القدس وبيت لحم) ثم دراسته في انجلترا تشكل نواة اهتماماته المعمارية ..وعلاقاته بالمكان ابتداء من بيت لميعة العسكري ..حتى منزله الذي صممه قحطان عوني .. وغرفته في شارع الرشيد وبيت اغاثا كريستي على دجله وغرفتها الطينية عند آثار نمرود ومقاهي بغداد: البرازيلية والسويسري والبرلمان ومكتبات مكنزي وكورونيت حتى تشكيلات شارع الأميرات وأرصفته وحدائقه ومنعطفاته .

((أخذت لميعة تدعونا بين الحين والحين الى منزلها لتناول الشاي .... والمنزل جديد لم يمر على بنائه عام واحد وأعجبت بتصميمه الحديث على غير ما اعتاده البغداديون حتى تلك الآونة في بيوتهم التقليدية، فقد وضع تصميمه المهندس حازم نامق الذي تخرج من جامعة ويلز وهو من أصحاب مدرسة معمارية صغيرة في العراق عرفت بتخطيط مبان للدولة تتميز بالجرأة في الرؤية والتصميم)) .. ومنذ تلك اللحظة سيعتني جبرا برفقة رهط من المعماريين والفنانين التشكيليين ليشكلوا نواة فكر وحداثة وجدل جديد في العراق . لقد كان صديقا لبلند الحيدري ويلتقي حسين مردان في تمرداته ويرافق حافظ الدروبي في مرسمه ويشكل مع جواد سليم جماعة بغداد للفن الحديث بحيث تتاح لجواد افكار ولغة مختلفة في عرض خطاب الحداثة ..وهو البيان الذي ألقاه جواد في افتتاح المعرض، وكان كما اشار الفنان شاكر حسن آل سعيد من وضع جبرا ذاته كما يتسع له الوقت لرفقة عدنان رؤوف وحلمي سمارة وخالد الرحال ودزدموند ستيوارت( الذي سيصبح في ما بعد اديبا لامعا وباحثا بريطانيا بشأن حضارات وادي الرافدين) ونجيب المانع ويوسف عبد المسيح ثروت وعبد الملك نوري وزهدي جار الله ونزار سليم وغيرهم كثيرون، وهم يمثلون نخبة من شباب بغداد الخمسينات الذين يأسرهم هاجس التجديد وتوجهات الحداثة وتيارات الوجودية والفكر.

×××

كثيرا ما يفاجأ جبرا بسؤال زوار بيته وهم ينظرون إلى المكتبة التي انتشرت على الحيطان لتأخذ حيزا كبيرا من البيت: هل قرأت كل هذه الكتب؟، وستكون إجابته التي تعود ان يقولها وهو يبتسم ، لقد اطلعت عليها كلها .. لم يكن الكتاب بالنسبة لجبرا سوى ضرب من العشق وهو يحفظ مقولة فرنسيس بيكون الشهيرة( بعض الكتب وجد لكيما يذاق، وبعضها لكيما يبتلع، والبعض القليل لكيما يمضغ ويهضم).

يتذكر جبرا ما قرأه عن لورنس من ان الأخير دخل مكتبة اكسفورد وكانت تحوي مئة الف كتاب وفي ثلاث سنوات من الدراسة تعرف عليها جميعا هذا التعرف بمفهوم جبرا هو أساس الكثير من المعرفة وهو الذي يدل القارئ الى الاتجاه الذي عليه ان يسير فيه لطلب المزيد من المعرفة .. لنا ان نتذوق الكتاب اونبتلع بعضه او نمضغه ونهضمه ببطء في كل الاحوال نحن نعيش حالة عشق لا تملها النفس يكتب جبرا في مقال بعنوان عشق من نوع آخر يقول :كانت تراودني فكرة أشبه بالحلم فكرت في كتابتها منذ اكثر من اربعين سنة، وهي عن رجل كان يعشق الكتب اشترى بقعة نائية على كتف عال لتلة صخرية ٰ مشرفة على واد كثير التعاريج والشعاب، وبنى عليها فندقا جميلا يجتذب الناس اولئك الذين يريدون الاختلاء بالطبيعة البعيدة عن ضوضاء المدن طلبا للتعمق في ذواتهم، مقابل أجور معقولة، وكان ذلك جزءا من خطة وضعها لنفسه . فهو ينفق معظم ربحه في كتب يشتريها بالمئات . وفي بضع سنوات تجمع لديه من المال ما يكفيه أخيراً لان يحول الفندق إلى صوامع، رتب فيها الكتب على رفوف لا تنتهي وجعلها دارا مفتوحة لكل من يريد ان يقرأ ويكتب، شريطة ان ينتهي ما يكتب الى مؤلفٍ يزيد من حس الإنسان بروعة الوجود .

لم يكتب جبرا قصته تلك، فقد كان يدرك آنذاك وهو في أواسط العشرينيات من عمرة انها غير معقولة وأشبه بالحلم .. لكن الحلم زامله سنوات طويله حتى استطاع في منتصف الستينيات من القرن الماضي ان يحققه ولو بشكل بسيط، فالدار التي حلم بها اكتملت ولم يبق غير المكتبة وهي في نظره الجزء الأهم في هذا البيت .. فجبرا الإنسان عاش طفولة ضنكة ونشأ في بيت ليس فيه إلا بضعة كتب حسب ما جاء بشهادته، والادخار آنذاك كان صعبا، فلما سنحت له الفرصة ان يدخل الجامعة في انكلترا كان اول شيء عمله وهو المبتلى بعشق الكتب ان سعى الى شراء الكتب بالجملة، بالعشرات كما كان يحلم بطل قصته الخيالية، وما هي إلا سنوات على الدراسة حتى وجد نفسه محاطا بالكتب من كل مكان، وهو يتذكر في سنيّ دراسته (مصاطب) الكتب في مدينة كمبردج وقد تزاحمت عليها كتب نادرة ونفيسة تباع جميعها بأسعار زهيدة، يقف جبرا متأملاً هذه المصاطب المليئة بالكتب يقلب هذا ويقتني ذاك وهو أشبه بسارق المعرفة، على حد تعبير الناقد الانكليزي وليم هازلت، سراق المعرفة الذين يطيلون الوقوف أمام أكوام الكتب ليقرأوا بمتعة وتلذذ، حيث يؤكد هازلت ان (سرقة المعرفة هي السرقة المشروعة الوحيدة في حياة المجتمع) وكان جبرا باعترافه واحدا من هؤلاء السراق حين تختفي النقود من جيبه فلا يجد بديلا من ان يقف ساعات ليقرأ بمتعة وتلذذ فقرة هنا أو فقرة هناك .

وفي بغداد مدينته التي عشقها وكتب عنها اجمل الأشعار والروايات وجد في سوق السراي ضالته فمصاطب الكتب نفسها التي في انكلترا اوباريس والجيب عامر بالنقود بعد ان وجد وظيفة حيث عمل مدرسا في دار المعلمين العالية.

×××

الزمان منتصف خمسينيات القرن الماضي ، جبرا يخطو بثقة في شوارع بغداد التي ألفها وألفته، يدخل مكتبة مكنزي يبحث في رفوفها عن آخر ما أنتجته المطابع في العالم ، ثم يسير باتجاه مكتبة (كورنيت) الواقع آنذاك في شارع السعدون والذي تخصص في استيراد المجلات الأجنبية، يجلس في مقهى البرازيلية في ذلك الزمان سيعتني جبرا بمجموعة من المعماريين والفنانين التشكيليين والشعراء ليشكلوا نواة فكر وحداثة وجدل جديد في العراق . كان مريدوه مجموعة من انبه مثقفي العراق السياب، حسين مردان ،جواد سليم، فائق حسن، بلند الحيدري، لينضم اليهم في ما بعد نجيب المانع والشقيقان نهاد وفؤاد التكرلي وعبد الملك نوري، هؤلاء المريدون وجدوا فيه مثقفا شديد الاعتزاز بثقافته، شديد الشبه بنجوم السينما آنذاك نافر ومتمرد وعنيد ورقيق وآسر وكريم وعاشق..حديثه يأخذ شكل الأحكام.. كلماته بمثابة سطور الحكمة في قصيدة شاعر لكنها على الرغم من اتخاذها شكل الاحكام فان الاستاذ جبرا ينأى بها عن الإطلاق وهو دائم الدخول والاشتباك في ساحات الحوار مع الجميع بصبر ودأب ورقة وحزم .. ولعل الطاقة الخلاقة في داخله،، لم تترك له مجالا للإقامة طويلا داخل بيته، أو داخل جسده، إذ وبصورة غير عادية دفعته لان يتخذ من بغداد عشقه الجديد يعايشها بكل تفاصيل حياتها اليومية، ولعل انخراطه السريع في الحياة الثقافية في بغداد في ذلك الوقت أمر يثير الإعجاب والدهشة معا، ويجعلنا نتساءل فعلا عن سر ذلك التوق العظيم للتغيير؛ واليوم ونحن على مسافة نصف قرن وأكثر من ذلك التاريخ، حين نتأمل سيرة جبرا، نلاحظ أن كل لحظة من لحظات حياته، كما قرأناها في كتبه، وكما عايشناها، كانت لحظة عشق واندفاع من جبرا مكتبته العامرة بالكتب والأصدقاء الذين تمتد لتستعير كتابا ربما لن يعود الى مكانه ثانية :( قد أبالغ أحياناً اذ أتحدث الى صديق ونحن نتأمل مكتبتي، فأقول ان الذي خرج منها ولم يعد قد لا يقل عنها عددا ..منذ بداية حياتي كنت أعير كتبي لكل من يطلبها عملا بمبدأ شيوع المعرفة).

شيوع المعرفة والسعي إليها لم يمنع شلة من الإرهابيين من ان يعبثوا بهذه المكتبة التي شكلت جزءا مهما من تاريخ العراق المعاصر.

اليوم وبعد الذي حدث أتخيل الأستاذ جالساً في مكانه الأثير الى قلبه .. المكتبة حيث الغرفة المليئة برائحة الأوراق والكتب يقرأ في كتاب خرج حديثا من مطابع لندن .. يتحدث الى صديق او يدقق في وجوه السائلين عن زاد معرفي .. كائن رقيق الملامح .. عذب النفس .. انيس .... سريع البديهة صريح يترك مظهره لدى من لا يعرفه بأنه شخص صعب وصارم لكن هذا الانطباع سرعان ما يتغير ليترك خلال دقائق انطباعات اخرى عن رجل يعشق الحياة قدر عشقه للفن.

الذين كانوا يترددون على بيت جبرا منذ بداية منتصف الستينيات يرونه في الحالة نفسها من جلساته الشهيرة في مكتبته فهو يجلس وحوله العديد من الكتب والأوراق والاضابير التي تحوي ترجماته لأحدث المقالات او الكتب . جلسة جبرا هذه الى المكتبة كانت بالنسبة اليه مختبراً وورشة ثقافية للبحث الدائم في أصول الفن العراقي ورائدا للكشوفات التي تميزت بالغنى المعلوماتي.. بين حين وحين كانت تتحول المكتبة الى صف تدريسي، الأستاذ فيه جبرا إبراهيم جبرا المثقف الواسع القرارات، والتلاميذ هم طلبة دراسات عليا في المسرح والنقد.

سنوات مرت على غياب جبرا لكنني اراه كلما قادتني خطواتي الى مسرح او قاعة فنون تشكيلية او مكتبة أراه مرآة شاخصة في صدر الثقافة العراقية .. مرآة كبيرة نرى فيها انفسنا وملامح عقود زاهية مرت في تاريخ بغداد .. مرآة هائلة تسكنها وجوه وهامات رسمها الأستاذ جبرا بريشة بارعة وصادقة.. وجوه تملك حضورا وحياة واستمرارية في الزمان اكثر من الأحياء أنفسهم .. شأنها شأن كل فن عظيم.

×××

ظل جبرا طرازاً فريداً من المبدعين الذين تتعدد مواهبهم وتتنوع اهتماماتهم، بدا النشر بالرواية التي تتابعت منذ ان اصدر "صراخ في ليل طويل ١٩٥٥ الى ان تحولت في سنواته الأخيرة الى سيرة ذاتية في البئر الأولى ١٩٨٧ وشارع الأميرات ١٩٩٤ من الرواية الى الشعر الذي كتبه بالانكليزية والعربية تاركا علامته المؤثرة في مسار الشعر الحر منذ ان كتب قصائد تموز في المدينة ١٩٥٩ وبعدها المدار المغلق عام ١٩٦٤ ومن الشعر الى الفنون التشكيلية حيث كتبه المتتابعة عن الفن التشكيلي حيث كتبه المتتابعة عن الفن العراقي المعاصر وجواد سليم ونصب الحرية وجذور الفن العراقي وغيرها الكثير ومن نقد الفنون التشكيلية والتنظير لها إلى نقد الأدب وتأصيله في كتبه التي أضحت علامات في النقد العربي المعاصر: الحرية والطوفان ١٩٦٠ الرحلة الثامنة ١٩٦٧ النار والجوهر ١٩٧٥ الفن والحلم والعقل ١٩٨٥ ،ومن تأصيل الناقد الى المترجم الذي بدأ بترجمة ذلك الجزء من كتاب فريز الشهير الغصن الذهبي ثم صموئيل بيكت واندرية بارو و أوسكار وايلد وفوكنر وألكسندر إليوت وادموند ولسون ويان كوت، والاهم ترجماته لمسرحيات شكسبير التي تعد من أفضل ما قدم للمكتبة العربية.

ان التعدد في أنشطة جبرا وتنوع مجالات كتاباته هو أول ما يلفت الانتباه لكل من يقترب منه، فإلى جانب التوقد اللاهب في الإبداع الروائي والحماسة المتقدة التي لا تفتر في مجال الشعر هناك الحركة القلقة التي تتنقل من مجال إلى مجال ومن نقد أدبي إلى نقد فني ومن الغرام بتاريخ الفنون والعمارة الى الغرام بالترجمة انه التعدد الذي يبدو صاحبه نهما في تعرف كل مجالات الإبداع الإنساني وتقديمها، شرها في امتلاك كل مفاتيح الكتابة وأدواتها وأساليبها والتعريف بها وهو التعدد الذي يميز النماذج الفريدة من مبدعي عالمنا الحديث، أولئك الذين جمعوا إلى الكتابة الوعي بها.

×××

غداً .. وغداً .. وغداً

وكل غد يمشي الينا بهذه الخطى الوئيدة يوماً اثر يوم

ما الحياة إلا ظل يمشي

ممثل أبله يتبختر .. يستشيط ساعة على المسرح

ولا يقول شيئاً

انها حكاية ملؤها الصخب والعنف

ولا تعني شيئاً

وضع جبرا ابراهيم جبرا تداعيات ماكبث في أول صفحة من ترجمته لرواية الصخب والعنف التي كتبها وليم فوكنر و ليدفع القارئ الى عالم فوكنر يعيش مع أبطاله المثقلين بهواجس الحياة وتقلباتها، بحيث نشم معهم رائحة الطين والمطر وشذى زهر العسل .. وتلك العبارة التي يرددها بنجي الأخرس الذي يحب كادي بطريقة غريبة بين غمغماته .. وصمته العميق بحيث لا نمتلك الا وهج السؤال عن عمق رواية فوكنر الرائعة و المجهول الشكسبيري الذي يحمله غموض تلك التداعيات الكثيرة لماكبث وهو يواجه أقدار حياته .. وكأنها صورة منطبقة على أقدار جبرا وتحولات حياته والاماكن التي عشقها وتحولت في ما بعد بفعل الزمن والحروب الى ركام من الماضي.

**خضرة وزهراً للمدينة**
**وضحكة لساكنيها**
**نسمعها**
**من كل نافذة ،**
**من كل حجر ،**
**من كل دار**
**جبرا من ديوانه (تموز في المدينة):**

**كانت بغداد الخمسينيات.. تموج بمعماريين عالميين ومصممين ومخططين حضريين هم رواد الباوهاوس ومنعرجات مدرسة الحداثة القادمة معهم ..وكان ثمة شباب جدد يغامرون في طرح أفكارهم وتصاميمهم لبلاد تضم مدنا وشوارع وكيانات معمارية مثل حلم مستحيل وممكن أيضاً .. وقد ظلت صور بغداد ترد في نصوص جبرا كأماكن و ملاذات وزوايا حميمة .. هي كناية عن فنادق وبيوت وحدائق .. وخلوات لفنانين وطالبي معرفة ومجددين وعشاق أيضاً .**

دار جبرا بعد تعرضها لاعتداء إرهابي